فجملة (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) خبر مستعمل في التقرير وإلزام الحجة إذ لا يخبر أحد عن فعله إخبارا حقيقيا) .

وجملة (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) خبر مستعمل في التعجيب والتوبيخ .

(ضل) و . لها ضر فهو خوفا النفوس يزعج لأنه الغرق على الإشراف هو : البحر وضر A E بضاد ساقطة فعل من الضلال وهو سلوك طريق غير موصلة للمقصود خطأ .

والعدول إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من عمل اللسان ليتأتي الإيجاز أي من يتكرر رداؤكم إياهم كما يدل عليه المضارع . فالمعنى غاب وانصرف ذكر الذين عادتكم دعاؤهم عن ألسنتكم فلا تدعونهم وذلك بقرينة ذكر الدعاء هنا الذي متعلقه اللسان فتعين أن ضلالهم هو ضلال ذكر أسمائهم وهذا إيجاز بديع .

والاستثناء من عموم الموصول لأن اسم ا مما يجري على ألسنتهم في الدعاء تارة كما تجري أسماء الأصنام فالاستثناء متصل .

ويجوز أن يكون اسم الموصول في قوله (من تدعون) خاصا بأصنامهم لأنهم يكثر دعاؤهم إياها دون اسم ا تعالى كما هو مقتضى التجدد فإذا اشتد بهم الضر دعوا ا كما قال تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا ا مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) .

ويكون الاستثناء منقطعا . ونصب المستثنى لا يختلف في الوجهين جريا على اللغة الفصحى . ولعل هذا الوجه أرجح لأنه أنسب بقوله (أعرضتم) .

والإعراض : الترك أي تركتم دعاء ا بقرينة الجمع بين مقتضى المضارع من إعادة التجدد وبين مقتضى الاستثناء من انحصار الدعاء في الكون باسمه تعالى .

وقوله (إلى البر) عدي بحرف (إلى) لتضمين (نجاكم) معنى أبلغكم وأوصلكم .

وجملة (وكان الإنسان كفورا) اعتراض وتذييل لزيادة التعجب منهم ومن أمثالهم . و (المفور) صيغة مبالغة . أي كثير الكفر . والكفر ضد الشكر .

والتعريف في (الإنسان) تعريف الجنس وهو مفيد للاستغراق . فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقا عرفيا بحمله على غالب نوع الإنسان وهم أهل الإشراك وهم أكثر الناس يومئذ فتكون صيغة المبالغة من قوله (كفورا) راجعة إلى قوة صفة الكفران أو عدم الشكر فإن أعلاه إشراك غير المنعم مع المنعم في نعمة لا حظ له فيها .

ويجوز أن يكون الاستغراق حقيقيا أي كان نوع الإنسان كفورا أي غير خال من الكفران فتكون صيغة المبالغة راجعة إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها . وكثرة كفران الإنسان هي تكرر

إعراضه عن الشكر في موضع الشكر ضلالا أو سهوا أو غفلة لإسناده النعم إلى أسبابها المقارنة دون منعمها ولفرضه منعمين وهميين لا حظ لهم في الإنعام .

وذكر فعل (كان) إشارة إلى أن الكفران مستقر في جبلة هذا الإنسان . لأن الإنسان قلما يشعر بما وراء عالم الحس فإن الحواس تشغله بمدركاتها عن التفكر فيما عدا ذلك من المعاني المستقرة في الحافظة والمستنبطة بالفكر .

ولما كان الشكر على النعمة متوقفا على تذكر النعمة كانت شواغله عن تذكر النعم الماضية مغطية عليها ولأن مدركات الحواس منها الملائم للنفس وهو الغالب ومنها المنافر لها . فالإنسان إذا أدرك الملائم لم يشعر بقدرة عنده لكثرة تكرره حتى صار عادة فذهل عما فيه من نفع فإذا أدرك المنافر استذكر فقدان الملائم فضج وضجر . وهو معنى قوله تعالى (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذر دعاء عريض) . ولهذا قال الحكماء : العافية تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى . فهذا الاعتبار هو الذي أشارت له هذه الآية مع التي بعدها وهي (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) الآية . ومن أجل ذلك كان من آداب النفس في الشريعة تذكيرها بنعم ا قال تعالى (وذكرهم بأيام ا) ليقوم ذكر النعمة مقام معاهدتها .

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا [68] أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا [69]) تفريع على جملة (أعرضتم) وما بينهما اعتراض . وفرع الاستفهام التوبيخي على إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر